مجلة الدراسات الإسلامية (Al-Dirâsât Al-Islâmiyya) / المجلس الإسلامي الأعلى/ المجلد 13 ع 23.
13 شعبان 1443 هـ. الموافق 16 مارس 2022
ISSN : 1112-4083

النزعة الإنسانية الإسلامية من منظور سوسيولوجي
ملاحظات حول جاك بيرك والإسلام

Islamic humanism from a sociological perspective

Remarks on Jack Burke and Islam

وائـــل الزاوي* Wael Zaoui waelzaoui31@gmail.com	علوم اجتماعية	جامعة تونس1

الإرسال: 16/ 01/ 2022 **القبول**: 19/ 02/ 2022 **النشر**: 2022/03/16

ملخص:

تُعَدُّ النَّزْعَةُ الإِنْسانيَّةُ ظاهِرَةً إِنْسيَّةً فِي الفِكْرِ الإِنْسانيّ، حَيْثُ تَتَجَلَّى القيَمُ الإِنْسانيَّةُ الهَادِفَةُ إِلَى العَيْشِ المُشْتَرَكِ دُونَ صِراعٍ مُتَوَحِّشٍ، وَتَفْرِضُ أَنْ يُعامَلَ الإِنْسَانُ الإِنْسَانَ كَأَخٍ لَهُ فِي الوُجودِ والأَدْميَةِ. يُعَبِّرُ عَنْ النَّزْعَةِ الإِنْسانيَّةِ إِمَّا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا، بَيْدَ أَنَّ القَوْلَ هوَ الأَكْثَرُ تَجَلِّيًا، خاصَّةً فِي الحَضارَةِ الغَرْبيَّةِ اَلَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَحْتَكِرَها لِوَحْدِهَا، بِالرَّغْمِ أَنَّ سُلوكَها غَيْرُ إِنْسانيّ، خاصَّةً بَعْدَ أَنْ عَمِلَتْ عَلَى اسْتِعْمارِ الشُّعوبِ وَنَهْبِ خِيَارَاتِهَا. يَأْتي مَوْقِفُ جَاكْ بِيرْكْ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الإِسْلامَ كَدينٍ وَكَحَضارَةٍ كَانَتْ يَسْعَى بِالْأَسَاسِ إِلَى إِبْرازِ الإِسْلامِ وَعَبْرَ كُلِّ تاريخِهِ الطَّويلِ عَلَى قُدْرَتِهِ اللَّامَحْدُودَةِ فِي الأَخْذِ والْعَطاءِ، وَعَلَى التَّعايُشِ مَعَ الآخَرِ والْأَحْداثِ فِي كُلِّ العُصُورِ وَلَا سِيَّمَا العَصْرِ الحَديثِ.

كَلِماتٌ مِفْتاحيَّةٌ: الإِنْسانيَّةُ؛ الإِسْلامُ؛ بِيرْكْ؛ الغَرْبُ؛ المُشْتَرَكُ.

Abstract: (English)

Humanism is considered as a humanistic phenomenon in human thought, Where the human values aiming at living together without savage conflict are manifested. Humanism is expressed either in word or deed, but the saying is the most conspicuous, especially in Western civilization, which wants to monopolize it, despite its inhumane behavior, especially after it sought to colonize peoples and plunder their options.

Jack Berque's position confirms that Islam as a religion and civilization was primarily seeking to highlight the limitless ability of Islam through its long history to give and take, and to coexist with the other and events in all ages, especially in the modern era.

Keywords: humanity, Islam, Berque, the West, the joint.

*- الباحث المُرسل: waelzaoui31@gmail.com

- مقدمة

في ملتقى "كابري" حول الدّين اشتكى الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا من غياب ممثّل عن الإسلام، وقد أيّده في ذلك مجموع المشاركين خاصة الفيلسوف الألماني هانز جادامار. (دريدا وآخرون، 2004، 5 &11).

إن غياب الحوار بمختلف اتّجاهاته يمثل معضلة كبيرة خاصة في عالمنا الإسلامي المعاصر، هذا العالم الذي يعيش على هامش الحضارة الغربية رافضا إيّاها تارة، ومرتميا في أحضانها تارة أخرى، مبتعدا في أغلب الأحيان عن منطقها الصحيح، وعن عقلانيتها، مكتفيا في أغلب الأحيان بقشور منجزاتها الثقافية والتقنية، وهو ما يدفعنا في هذا المقام إلى التساؤل المشروع عن ارتباطنا بالعقل والعقلانية رغم وعينا ببعض المحطات الأساسية في التاريخ الإسلامي كموقف المعتزلة وأغلب أقطاب الفكر والفلسفة في الغرب الإسلامي (الشاطبي-ابن باجة- ابن رشد...) مثلا.

إن ارتباط النزعة الإنسانية بجوهر الفكر الديني جعلت منهما ثنائية لا تنفصم، فكل الديانات كما يقرّ بذلك غابرييال مارسيل تسعى إلى الخير وتعمل على تحقيقه، وهو ما يحمل هذا الفيلسوف الفرنسي إلى القول إن الإنسانية لن تخسر شيئا بإيمانها والعكس صحيح. (مارسيل، غ، 1988، 6).

إن علاقة الإنسان بالدين عبر أسئلة الحياة والموت والمصير والحرية والكون..إلخ، هي أسئلة أساس في كل الأزمنة وحتى في عالمنا المعاصر، عصر العولمة والرقمنة والتكنولوجيا الروبوتية. من هنا تلك المقابلة الفلسفية عند كانط وهيجل وشيلينج، وصولا حتى الفيلسوف ليفيناس، خاصة في مقاربته بين العدمية (Nihilisme) والميتافيزيقا والفكر الديني في تركيبته اليهودية المسيحية، فحسابات أقطاب الفكر والثقافة والفلسفة الغربية، قد صفيت في مجملها أو في أهم جوانبها عندما تعلق الأمر بالنزعة الإنسانية والمسألة الدينية. وتم الاتفاق أو على الأقل قبول الرأي الآخر عندما طرحت هذه المعادلة على طاولة الحوار.

إن النزعة الإنسانية في علاقتها بالمسألة الدينية كواقع وكأسلوب تفكير بأدوات وميكانزمات خاصة، تختلف أشد الاختلاف في المجتمعات الإسلامية عنها في المجتمعات الغربية التي نحن بصدد مقارعتها أو الاحتكاك بها.

أولا: لأن ممارسة الفكر الديني في مجتمعاتنا العربية الإسلامية يختلف بل ويناقض الممارسات الواقعية للمسألة الدينية خاصة في الغرب المسيحي.

ثانيا: بنية الفكر والثقافة والعقل الإسلامي تختلف إلى حد بعيد عن بنية الفكر والثقافة اليهودية-المسيحية، رغم أنها تنتمي في الظاهر إلى نفس الدائرة الدينية (الديانات الإبراهيمية)Monothéisme .

ونحن بصدد الاقتراب من النزعة الإنسانية، لابد هنا من التركيز على البعد السوسيولوجي، وأحسن مثال على ذلك هو موقف أحد السوسيولوجيين الكبار، ماكس فيبر، فمقاربة ماكس فيبر تختلف إلى حد كبير عن مقاربة كل من ماركس ودوركايم حول المسألة الدينية والنزعة الإنسانية. خاصة من خلال كتابه الرائد في مجاله حول: الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية، إلا أن فيبر لم يقف عند هذا الحد، بل حاول بعد ذلك خاصة في مجموعة من كتاباته ومقالاته المتفرقة الخاصة بالدين، الاهتمام بالديانات الأخرى مثل اليهودية والبوذية والهندوسية، كما أن اهتمامه بالإسلام ومع أنه كان جد محدود ومنحصر إلا أن الأستاذ برايان تيرنر في كتابه 'علم الاجتماع والإسلام -دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر-'. (تيريز،ب، 1978).استطاع ان يتتبّع خطوات فيبر وملاحظاته الإلماعية حول الإسلام كدين في علاقته بالنزعة الإنسانية من خلال بعض النتائج التي يصل إليها محدّدا مواطن التوفيق ومواطن الإخفاق في تفسيراته، كما أن المفكر الفرنسي ماكسم ردنسون حاول مقاربة ذلك من خلال دراسات ومقاربات سوسيو اقتصادية وسوسيو سياسية، خاصة كتاب 'جاذبية الإسلامfascination de l'Islam '. والإسلام والرأسمالية.

وبعد، لابد لنا أن نؤكد على مساهمة جاك بيرك لأن معرفته بالإسلام كانت كبيرة لأن مولده كان في الجزائر (مدينة فرندة) وتجواله الطويل في حياته الطويلة من المغرب العربي الكبير إلى المشرق العربي.

يتميز بيرك في معالجته للإسلام بالنزعة الإنسانية وعلاقتها بالإسلام الصحيح حسب تعبير بيرك، فهو يتميز أساسا عن مجموعة من المستشرقين وعلى رأسهم لويس ماسينيون، الذي ورغم الاحترام والتقدير اللذان يكنّهما له، لم يشاطره فرضيته التي كانت تسعى إلى محاصرة الإسلام والمسلمين في قدسية أبدية غير محدودة، ولم يشاطره نزعته التوفيقية بين الإسلام والمسيحية، تلك النزعة التي ما فتئت تقلّص دور الإسلام باعتباره دينا مكمّلا للمسيحية في أحسن الأحوال. (Berque, J, 1980, 15)

فإذا كان ماسينيون قد سعى إلى اختزال الإسلام بنزعته الإنسانية المتفردة والخاصة به في روحانية خالصة وجوفاء، تكبّل المسلمين بقدسية نهائية وأبدية، فإذا كان قد حاول الزج بالإسلام في أحضان المسيحية فإن بيرك وعكس ذلك تماما انطلق من فرضيات معاكسة تماما، فقد كان ينظر إلى الإسلام كطاقة قادرة على التجديد وكان يهدف إلى مواكبة هذه الطاقة بالتحليل السوسيولوجي على مستوى الواقع والفكر.

بالإضافة إلى خلافه مع ماسينيون، فقد كان خلافه مع المستشرق الإنجليزي أندري جيب Gibb واضحا فيما يتعلق بالإسلام وقداسته والعرب وتميّزهم، فإذا كان بيرك قد استحسن بعض التحليلات التي سعت أحيانا إلى تخليص الإسلام من قداسة مبالغ فيها، فإنه لم يتساهل في نقد نزعته الدوغمائية التي جعلت منه جوهرا قارا وثابتا، وجعلته في تعارض مطلق مع مقتضيات الحضارة الصناعية المعاصرة، وهو أمر لم يقبله أبدا وهو العارف بواقع المسلمين الاجتماعي والسياسي والثقافي وفي سعيهم المتعثر للخروج من التقوقع الذي يعيشونه.

أما المحطة الثالثة التي يمكننا الوقوف عندها في مسيرة بيرك العلمية والبحثية، هو موقفه من أعمال أحد أهم المستشرقين الباحثين في الإسلام والنزعة الإنسانية، إنه المستشرق مونتجومري واتس Montgomery watts الذي أبدى حساسية خاصة تجاه الإسلام، وهو الذي قام بدراسة ألفاظ القرآن في مؤلفه المشهور (في مرافقة القرآن en compagne du coran).

ما أثار اهتمام بيرك في هذا المؤلف وفي مجمل أعمال واتس هو توجه صاحبه الذي جعله يدرك أهمية الإسلام في العالم عكس ما ذهب إليه جل الباحثين والمستشرقين، إلا أن

الخلاف الجوهري يكمن بينهما في كون واتس كان يدفع هو كذلك بالإسلام إلى التكامل مع المسيحية واليهودية من أجل التوصل إلى صيغة الديانة الواحدة كمرحلة نهائية.

أما بيرك، وهنا تكمن أصالته، فقد عمل على ربط الجسور بين الإسلام والديانات الأخرى دون خلط أو ذوبان، لقد كان بيرك حريصا كل الحرص على تجنب ما آلت إليه النزعات التوفيقية التي لم يسلم منها حتى واتس نفسه، بالرغم من كون هذا الأخير تميّز منهجيا عن غيره وبالرغم من كونه أراد مصاحبة الإسلام ومرافقته، لكنه كما يقول بيرك (أخلّ بهذه المصاحبة للمؤمن، لأنه يمنعه من مسيرته الانفرادية نحو المستقبل).

إن الإسلام الذي كان مصدر حضارة شامخة خلال القرن العاشر الميلادي وجد نفسه في العصر الحديث في مواجهة قيم الحضارة الصناعية والتكنولوجية الغربية، وهو بالتالي لن يجد مفرا إما في الدفاع عن نفسه أو طرح البديل الحضاري أو في التكيف والانتظار، وكيفما كان الحال فهو لم يستسلم أبدا، ولعل ما يثير الانتباه في أعمال بيرك هو تركيزه على الدور الذي لعبه الإسلام خلال المرحلة الاستعمارية وما بعدها، حيث قام في مواجهة الاستعمار بدور الحافظ للهوية قبل أن يمر إلى موقف المواجهة، وهو ما يلخص الإشكالية الكبرى التي يعيشها العالم الإسلامي.

من هنا فإن موقف بيرك من الإسلام كان يختلف عن المواقف الأخرى، ذلك أنه كان يحسن العربية ويعرف بعض لهجاتها وكان يعرف بل ويتقن الإسلام كدين وكحضارة من الداخل، ومن ثمة فإن حديثه وتحليله للظاهرة الإسلامية كظاهرة إنسانية كان يتموقع ضمن إطار منهجي ومعرفي هو أقرب إلى المعرفة الكلية العميقة التي تستكشف وتكتشف كل البنيات الدالة على التفاعل الإيجابي مع كل الجوانب التنويرية والتحديثية والحداثية.

وعلى هذا فإن بيرك وعبر كل مسيرته الطويلة كمفكر وباحث وعالم اجتماع استطاع أن يكتشف مكامن الثورة الدائمة للنزعة الإنسانية التي يتيحها هذا الدين للذين يمارسونه ويعتنقون تعاليمه. لقد كان بيرك مستشرقا من نوع خاص لأنه استطاع دائما أن يبتعد عن الاستشراق التقليدي بكل اتّجاهاته خاصة فيما يتعلّق بالأمور الدينية نظرا لمعرفته الموضوعية الثاقبة للمسيحية من جهة وللإسلام من جهة ثانية.

إن ثقافة الرجل وموسوعيته فيما يتعلق بالعرب والإسلام كدين وحضارة سمحت له بولوج كل مناطق الظل التي كان كل الاستشراق الكلاسيكي يقف مشدوها ومكبلا في التعامل معها.

ويمكننا القول إن كتابات بيرك كانت دائما تبحث عن عناصر النقد التي تسمح بنزع اللثام عن المكامن المستورة والمتسترة.

وقد كان بيرك مصرّا على تقديم ذلك من خلال معالجته السوسيو-أنثروبولجية والتاريخية للحضارة العربية الإسلامية في مختلف أوجهها المادية والثقافية وحتى النفسية، معتمدا على عدة عناصر لتوضيح ذلك، منها:

1- أن مفهوم التاريخ عند العرب والمسلمين هو مفهوم متكامل لا يمكن فصله عن سياقه الموضوعي والصراعي مع حضارات وثقافات أخرى، الأمر هنا جد طبيعي لكون التاريخ في مفهومه العام هو في نهاية الأمر تاريخ لكل الإنسانية.
2- إعادة النظر في تاريخ العرب الحديث قبيل وأثناء وبعد ما يسمى بالمرحلة الاستعمارية الكولونيالية، لأن في ذلك إعادة الأمور إلى سياقها الصحيح ولأن قراءة هذه المراحل تحدد مستقبل العرب والإسلام على أحسن وجه.
3- إعادة قراءة المرحلة الاستعمارية لأنها تضعنا في السياق البحثي الصحيح على اعتبار أن الظاهرة الاستعمارية-الكولونيالية هي ظاهرة تاريخية ومن الواجب المعرفي والتاريخي أخذها كما هي، أي ظاهرة تاريخية قابلة للتشريح والتحليل وهذا بالفعل ما قام به بيرك، وكان متألقا في تبيانه وتقديمه. (Berque, J, 1989, 15).

وفي خضم هذه المحاولات النقدية بعناصرها المشار إليها وبعناصر أخرى يؤكد بيرك في هذا السياق وخاصة في كتابه "مذكرات الضفتين" "إن القضية التي تشغلني ليست استرجاع الماضي أي وضعه في الذاكرة، بل النظر في النصيب المحرك أو المساهم أو المعوض الذي أخذه وبالأخص الذي سيأخذ الإسلام في مسيرة الحداثة الشرقية، وبعبارة أخرى يتعلق الأمر بالعلاقة بين الصيرورة التاريخية والأصول".(Berque, J, 1989, 251) .

إن كل تحليلات بيرك للإسلام كدين وكحضارة كانت تسعى بالأساس إلى إبراز الإسلام وعبر كل تاريخه الطويل على قدرته اللامحدودة في الأخذ والعطاء، وعلى التعايش مع الآخر والأحداث في كل العصور وخاصة العصر الحديث.

لقد كان الإسلام الحاضن للهوية ومحفزا للصمود والتصدي، وكل ذلك بسلاسة وأخلاق تليق به كدين وحضارة كبيرة، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا المسيحية تبيد المسلمين على أراضيها وتقوم بهدم مساجدهم وتنصب محاكم التفتيش الشنيعة. كان الإسلام يحتضن بسماحة لا مثيل لها، وهو فعلا ما كان بيرك يسعى إلى تمجيده في الإسلام.

فالإسلام سواء في الماضي أو الحاضر كان دائما يمثل الدين في أبعاده المتعددة والإشكالية، لقد كان ولا يزال يقوم بكل أدوار الصمود كما كان مستعدا للنزاع الذي لا هوادة فيه، أما التحدي فإن الإسلام كان دائما يسعى إلى ذلك. إن الإسلام النقدي هو الإسلام الإشكالي التاريخي المستند على الاجتهاد كموقف نقدي ومنهجي، وهذا ما كان يسعى إلى تبيانه في كل مؤلفاته التي كانت ترتكز على إبراز النزعة الإنسانية لأنها جوهر الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

لقد خصص بيرك جزءا كبيرا للعالم العربي والإسلامي في كتبه ومؤلفاته وأبحاثه المختلفة خاصة بعد مرحلة الستينيات، وهي مرحلة استقلال كل البلدان العربية والإسلامية، وهذا في الحقيقة أمر دال على مدى قرب هذا المثقف المستشرق من الإسلام وأهله ومن نزعته الإنسانية الطاغية.

وحول هذا الموضوع يؤكد أحد الباحثين العرب أن بيرك كان ذلك الملاحظ النزيه غير المجامل لسلوكات الإسلام.

خصوصا في التاريخ المعاصر، مبرزا كيف أنه يتمتع ويتميز بقدراته على التكيف والتفاعل والتجاوز والتحدي، مؤكدا أن: "الإخفاقات والنجاحات التي تعرفها البلدان الإسلامية عامة والعربية خاصة مردّها إلى البحث عن الذات وعن الهوية دون رفضها للحضارة المعاصرة". (المجاهد، ح، 2012، 136).

إن جاذبية الإسلام والعالم الإسلامي تكمن في هذه الجدلية المعاندة مع الآخر دون رفض أو إقصاء لذلك الآخر رغم ما عانى منه الإسلام والمسلمون، وهنا تكمن هذه السماحة بل وهذا التواضع في معانقة الآخرين.

******

المصادروالمراجع

- براين تيرنر. (1978). علم الاجتماع والإسلام، دارسة نقدية لفكر ماكس فيبر، ترجمة: د.أبو بكر أحمد باقادر، دار القلم، بيروت.
- جاك دريدا، وآخرون. (2004). الدين في عالمنا، ترجمة: محمد الهلالي، حسن العمراني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
- حسن المجاهد. (2012). سوسيولوجيا العالم العربي لدى جاك بيرك، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر، المغرب.
- غابريال مارسيل. (1988). من الرأي إلى الإيمان، ترجمة: قزحيا خوري، منشورات عويدات، بيروت، لبنان.

- J.Berque.(1980). l'Islam au défie, Gallimard, Paris.

- J Berque.(1989). Mémoire des beaux vives, Ed Seuil, Paris.